شوساكو إندو... ضمير اليابان الصارخ

بقلم: جاري ويلز
ترجمة: كامل يوسف حسين

حينما يتناول اليابانيون حبات فول الصويا الخضراء المغلية فإنهم يدفعون الحبات بقوة من القرنة إلى اليد أو الفم بمهارة عجيبة. وفي مشرب مزدحم بمدينة طوكيو رحت أسائل زوجتي عن الكيفية التي تؤدي بها هذه العملية، قال الساقي الذي كان يتحدث إنجليزية تشوبها لكنة فرنسية: «سأريكم»، وأمسك بالقرنة من يدي، فوجهها نحو فمه، فتناثرت الحبات على الأرض. لقد اكتشفت «الأحمق» أو المثال الذي صيغت وفقاً له شخصية جاستون بونابرت في رواية شوساكو إندو الصادرة في ١٩٥٩ بعنوان «الأحمق العجيب»، وحينما قام جورج نيران الراهب الفرنسي بافتتاح هذا المشرب خلال الصيف الماضي تناولته الصحف كما لو كان شيئاً ينتمي إلى أثر قومي: تلك كانت الشخصية الغريبة التي قابلها إندو في فرنسا وراقبها في اليابان وصاغها في إهاب واحدة من أعظم الشخوص الهزلية في الأدب الياباني الحديث.

وربما كانت روايات كوبو آبي وكينزابورو أوي هي وحدها التي تحظى في عصر ما بعد يشيبا باحترام يفوق ما تحظى به روايات شوساكو إندو. ويعد الكاتبان الآخران متطرفين في آرائهما السياسية وأساليبهما الفنية، لكن إندو يكتب روايات عتيقة الطراز قوية التأثر بفرانسوا مورياك ويربط نفسه بالكنيسة الكاثوليكية في اليابان المحافظة على الصعيد اللاهوتي. وحيث أن الكاثوليك يشكلون فحسب نصف الواحد في المائة من سكان اليابان فإنه يبدو كاستثناء ويطرح ذاته متجاوزاً ما يعد خروجاً على القاعدة بل وعبثاً على وجه التقريب. وفي مسرحيته «البلاد الذهبية» يذهب إندو إلى القول بأن اليابان لا يمكن أن تتقبل المسيحية أبداً حيث أنها تفتقر إلى الإحساس بالرب ويعوزها الشعور بالخطيئة والحس بالموت.

إذا كانت المسيحية والثقافة اليابانية متضاربتين بمثل هذا النحو الباعث على فقدان الأمل، فلِمَ كرَّس إندو حياة عملية مفعمة بالنشاط لاكتشاف الأبعاد الشاملة لهذا اليأس؟ إن أفضل موضع ننشد الإجابة فيه قد يكون الطبعة الأميركية الحديثة من «البحر والسم» وهي الرواية الصادرة عام ١٩٥٨ والتي وهبت إندو أول معايشة للشهرة وللنزاع. وحيث أن طبعة إنجليزية كانت قد صدرت في وقت سابق في طوكيو فقد اصطحبت نسخة منها معي في طريقي إلى إجراء مقابلة صحفية مع إندو خلال الصيف الماضي، وعلى الرغم من أنه يزعم أن اليابانيين ليس لديهم شعور بالخطيئة، فإن هذه الرواية تصف نمو هذا الشعور لدى طبيب أذنب بارتكابه جرائم خلال الحرب، ولا تؤدي المسيحية دوراً في «البحر والسم» لكن بطلها يدرك ذنبه.

أبلغني إندو بقوله: «من الصحيح أن الشعور بالخطيئة ليس أمراً طبيعياً بالنسبة لليابانيين، لكن إمكانيته قائمة حيثما وجدت الخطيئة» وخطيئة الرواية مستمدة من التاريخ، فقد قام الأطباء

اليابانيون بإخضاع أسرى الحرب الأميركيين لعمليات تشريح وهم أحياء وذلك في إطار تجارب قصد منها الوصول إلى حدود جراحة الرئة ومدى الاحتمال إزاء جرعات معينة تحقن بها أجسادهم. كان ذلك أمراً وحشياً مثل بعض الأمور التي جرت في معسكرات الموت بأوروبا، غير أنه ــ شأن تلك الأعمال ــ لم يقم به بالضرورة وحوش...»، ويخلق إندو عالم المستشفى المفعم بالطموح العقيم ونهج المؤسسات في التملص من المسؤولية، ذلك النهج الذي يكفل أن يسلس قياد ما لا يمكن أن يخطر على بال فيغدو تدريجياً مجرد أمر لا يدعو للابتهاج، النهج الذي يلقي الأقنعة على وجه جرائم الحرب فتغدو واجبات حرب مبهمة، ويؤدي إدراك الجريمة على الصعيد النفسي إلى تعجيز الطبيب الوحيد الذي يتراجع، إن الذنب ليس شائعاً بين اليابانيين بل هو غريب إلى حد أنه يُصيب بالشلل.

تروي القصة كنوع من حكايات التحري، وتبدأ مثل هذه القصص غالباً بجريمة ثم يجري البحث عن المجرم، غير أن هذه القصة تضم مجرماً في البداية ولكن بلا جريمة، ونحن نقابل الدكتور سوجورو من خلال فضول مريض ضَجِر يلاحظ عزلة هذا الطبيب الماهر الذي تخلت عنه زوجته ورفض صحبة الآخرين كافة، وإذ تتاح له فرصة فحص خلفية سوجورو (من خلال الشهادة المعلقة على الجدار) فإن التحري الذي فرض نفسه يشرع في كشف النقاب عن جريمة الطبيب وكذلك جريمة اليابان وجريمته هو ذاته، وبفهم الطبيب فهماً وثيقاً يهدد المريض أمنه الضجر هو نفسه.

إنها رواية ذات مشاهد قوية، لكنها تتصف بانقطاع ينبع مما درج عليه اليابانيون من نشر الروايات في شكل حلقات مسلسلة، حيث توشك الساحة الأدبية في طوكيو وما حولها أن تكون ساحة فيكتورية. فالأدباء هم شخصيات مرموقة تنال أجوراً طيبة وتنتج فيضاً من النثر والمقالات والقصائد والمسرحيات والروايات، ويتم ترقب حلقات الرواية الجديدة بشغف لا يشبه تماماً ما كان عليه الأمر مع حلقات سكوت، وإنما يكاد في بعض الأحيان يماثل ما كان عليه الحال مع حلقات ديكنز. وفي إطار هذا الشكل فإن شخصية المستفسر الأول عن دكتور سوجورو يضيع بعمق في الأجزاء الأخيرة من الرواية بحيث أن إندو يقدم في ارتباك على إسقاطه، فالرجل الذي قصد بوضوح أن تكون مفاهيمه إطاراً للرواية يختفي ببساطة، ويظل الإطار مفتقراً لجانب كامل من جوانبه.

تتجنب الرواية التي يشتهر بها إندو أكثر من غيرها سواء في بلاده (حيث حولت إلى فيلم) أو في الخارج، صعوبات الحكاية بتبسيط كبير وتكثيف للحكي الخطي. وتقوم رواية «الصمت» على أساس فضيحة تاريخية أخرى هي ارتداد أحد كبار رهبان اليسوعيين عن المسيحية في القرن السابع عشر. لقد تزوج المبشر الأب كريستوفاو فيريرا وأصبح مثقفاً بوذياً وساعد في فحص أولئك الذين يشتبه في اعتناقهم المسيحية، وفي رواية إندو يسعى معجب شاب بفيريرا وتلميذ سابق له إلى رحابه وينضم إليه في ارتداده عن عقيدته، ومرة أخرى فإن رجل تحرٍّ يتفهم طريدته جيداً ويكرر جريمته.

ومنذ ترجمة «الصمت» إلى اللغة الانجليزية (في ١٩٦٩) قورن إندو بصورة متكررة وعلى نحو مرهق بجراهام جرين الذي أشاد بكتابه بحرارة. ويماثل جانب من النقد الذي وجهه بعض الكاثوليك اليابانيين إلى إندو الهجمات الكاثوليكية المبكرة على جرين الذي اتهم بتمجيد الخاطئين والسخرية من الورعين. لكن افتتان جرين بالخطيئة والذنب يبدو مروضاً تماماً إذا ما وضع إلى جوار افتتان اندو بهما. إن كاهن الويسكي في رواية «القوة والمجد» لا يرتد عن دينه ولا يفقد إيمانه، بل يواصل الاحتفاظ بمنصب كنسي بالرغم من عدم جدارته الذاتية به، الأمر الذي يؤهله بصورة جزئية لخدمة الضعاف الآخرين، ويكتشف إندو أحجية أكثر إثارة للاهتمام، فكاهنه يصبأ بالفعل لا عن ضعف وإنما عن حب لكي يجنب معتنقي المسيحية الاضطهاد المتعاظم الذي يوجَّه ضدهم.

قال جون أبدايك في معرض المقارنة بين إندو وجرين، وذلك في عرضه لرواية «الصمت» في صحيفة النيويوركر: إن أحد ضروب الضعف في الرواية يتمثل في التماثل الواضح بين كيشيجيرو وهو الرجل الذي يشي بالذين اعتنقوا المسيحية والمرشد المهجن في «القوة والمجد»، وكاهن جرين يقهر الجزئية الأخيرة من كبريائه حينما يعترف بضعف يشارك فيه الرجل الذي خانه، وتلك موضوعة مسيحية تقليدية بما فيه الكفاية، لكن كاهن إندو يكتشف أنه بحاجة إلى كيشيجيرو كذات بديلة وأنهما معاً مرتبطان على نحو غير قابل للانفصام في لا تكافؤ ثقافي متقاطع، زواج للعقول لا يمكن أن يثمر شيئاً إلا سوء الفهم. إلا أنه لا يمكن كذلك أن يستسلم دون التخلي عن هويته. ويشير إندو في موضع تالٍ إلى أن تلك كانت هي العلاقة بين المسيح ويهوذا. إن توحّد اليابان والمسيحية محكوم عليه بالإخفاق لكن الأمر ذاته ينطبق على كافة لقاءات الإنسان مع الرب. ورغم ذلك فإنهما يمضيان معاً (يقول إندو إن أمه قد جعلته يعمد في الثالثة عشرة من عمره إلى ارتداء ملابس غريبة لا تناسبه. وكان يحاول دونما نجاح أن يجعل من هذه الملابس كيمونو منذ ذلك اليوم).

إن مقارنة أكثر إثارة للأهمية بين إندو وجرين من شأنها أن تبحث «الأحمق العجيب» لإندو و«الأميركي الهادىء» لجرين. ليس ثمة موضع هنا للحديث عن التأثير المباشر، وبدلاً من ذلك فإن المرء يجد موضوعات متماثلة منظوراً إليها من خلال ثقافتين،

«فالبريء» الغربي يحاول إدراك «التضاعف» الشرقي الذي لا يكون إزدواجية دائمًا لكنه يمكن أن يكون كذلك أيضاً. والبراءة في الحالتين كلتيهما مدمرة، لكن الأحمق الفرنسي عند إندو يتم تدميره فيما يقوم الأميركي عند جرين بالتدمير، (إن الجانب الساخر في الحديث عن «مخلص» فرنسي يمكن النظر إليه من خلال حقيقة أن إندو جعل جاستون بونابرت الأحمق يصل في ١٩٥٩ على متن السفينة «فيتنام»).

لقد صيغت شخصية جاستون بونابرت، كما أسلفت القول، على غرار شخصية الأب نيران المتخبطة والمحبوبة في الوقت نفسه، والتي قُدِّر لإندو لقاء صاحبها في فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية. كان إندو من ضعف الصحة بحيث لم يخدم في صفوف القوات المسلحة (وذلك على الرغم من أنه قد دُفع به في غمار التدريب الأساسي في الساعات الأخيرة اليائسة وذلك بالكاد في الوقت المناسب ليعايش وحشية الضباط اليابانيين في التعامل مع المجندين) وقد قام إندو بإجراء بعض الدراسات في فرنسا خلال سنوات ما بعد الحرب حينما كان الكاثوليك يقدِّمون له قراءة «وجودية» لروايات مورياك وبرنانوس الأولى. كان نيران مهتمًا باليابان فأمطر إندو بالأسئلة، ومضى عقب ذلك إلى هناك ليقوم بالتدريس في مدرسة كاثوليكية. وبعجزه عن الشعور بالحرج في بلاد يعد فيها الحرج موتاً للصورة الذاتية للمرء راح يوجه الإهانات يميناً ويساراً لذوي الحساسية (وحتى خلال الصيف الماضي حاول إندو تثبيط الكاهن عن افتتاح مشرب يمكن أن يتحدث فيه عن الرب مع الشباب، وكان مساعدو الساقي، الذين تحدثت معهم عن طريق مترجم، طلاباً قدامى لنيران. وحينما سألتهم عن السبب في مجيئهم للعمل هناك قالوا إنهم أملوا في أن يبرهنوا على خطأ تصور إندو أن نيران جعل من نفسه أحمق مرة أخرى، لكن إندو في تعبير مثالي عن سلوكه قدم بعض النقود للمشرب حينما وجد أنه لا يستطيع تثبيط همة القس العنيد).

في الرواية يتقلب جاستون بونابرت في سلسلة تشردية من ضروب سوء الفهم المدنية، وبعضها قابل تماماً للتنبؤ به (فعلى سبيل المثال يلج المبغى باعتباره فندقاً) ولا بد أن إندو قد شاهد بعض أفلام «السيد إيلو» في باريس، ولكن المتخبط يُجتذب إلى عصابة للقتل (القاتل يدعى إندو) وفيما يطارد القاتل قنيصته يتابع الأحمق القاتل، أحدهما يحاول التحرك خلسة والآخر يثير الضجة بارتطامه بعلب الصفيح في مقلب للقمامة مناشداً القاتل ألا يقتل.. لأجل خاطره، إن هذه المتابعة المرهقة للقائم بالمطاردة كفيلة بدفع أي شخص نحو القتل. لكن بونابرت ــ نيران يقوم بالفعل بإنقاذ الضحية التي تستحق القتل باعتراض الطريق، وتلقى حتفه نتيجة لتدخله. مرة أخرى التقى الشرق بالغرب وخَسِر الغرب في اللقاء، لكن الشابين السطحيين اللذين فرض عليهما بونابرت أصبحا على نحو غريب محرجين إزاء حرجهما بسببه. لقد التقى الشرق بالغرب ولم يعد هذان الشخصان شرقيين تماماً فالذنب يتحرك من مرقده.

إن إندو يرقب جمرات الذنب الواهنة التي يجدها في اليابان وينفخ فيها عبر ضحكه في رواية إثر الأخرى، ويشير في كتابه الصادر عام ١٩٧٤ بعنوان «حينما أصغر» إلى أن هناك سبباً للذنب إزاء حاضر اليابان وكذلك ماضيها خلال الحرب، ويتذكر أوزو بطل الرواية شبابه قبل الحرب فيما هو يراقب البروز الصاخب لابنه في عالم الطب، ومن الشخصيات المحورية في المشاهد الأولى «فلاتفيش» صديق أوزو المقيت الغارق في حب مجنون لفتاة جميلة يستحيل استحواذه عليها (قال لي إندو بوجه متجهم الملامح إن فلاتفيش يمثله حينما كان صبياً) وتمس آثار من كسل هكليبز من أيام أوزو الشاب الهزلية والمجردة من الهدف غير أنه لا يستطيع أن يفكر في السبب الذي يجعل ذهنه يعود على مثل هذا النحو القسري إلى شخص متناقض وبائس مثل فلاتفيش، إلى أن يطلعه هدف ابنه الضيق النطاق والوحشي الطابع على السبب.

إذا كانت الحرب هي خطيئة اليابان الملتونية في الجنة، فإن اليابان الحديثة التكنوقراطية هي ما حدث بعد الهبوط من جنات عدن. لكن إندو ليس مثل ميشيما في توقه إلى نزعة عسكرية قدر لها الاختفاء. وحتى المتطرفون في اليابان يبدون الأسف على البراءة المفقودة للأيام غير الغربية (وبصفة خاصة في رواية أوي بعنوان «اليوم الذي سيكفكف فيه هو ذاته دموعي» حيث نجد أن والد الرواية هو فلاتفيش وقد جرى تذكره بصورة محببة) وقد أبلغني الناقد اليساري الكبير سويتشي كاتو بقوله: «حينما انتهت الحرب اعتقدت أن وصول الأميركيين هو فحسب تحرير بنسبة تسعين في المائة واحتلال بنسبة عشرة في المائة. أما الآن وحينما أتطلع حولي إلى إضفاء الطابع الأميركي على بلادي فإنني أعتقد بصورة أكبر أن النسبة هي ستون إلى أربعين، إنكم تحتلوننا بأكثر مما فعلتم في وقت الاحتلال بالمعنى الحرفي»، إن أحد الأشكال التي يتخذها الذنب هو تذكر براءة الماضي.

تسري الوسائل اليابانية في تجنب الواقع عن إندو وتلازم تفكيره، وقد خصص إحدى رواياته لهذا الموضوع. وفي رواية «البركان» يقع الحدث بكامله في الظل وعلى جوانب بركان خامد أظهر بوادر اليقظة. ولكي يعيش اليابانيون مع احتمال كارثة وشيكة ــ تقع من خلال زلزال أو إعصار أو مد هائل ــ فقد توصلوا إلى حيلة الإعداد للكارثة دون أن يتركوا أنفسهم يفكرون فيها بالفعل، ويتتبع إندو هذه الآلية النفسية في مكان يشاد فيه صرح الحياة العملية البيروقراطية أو يحطم عبر التنبؤ بثورة البركان أو إعلان استحالتها. ويمكن إحراز الثروات بالبناء على المنحدرات البركانية. ويجعل قسّ مسيحي من العناية الإلهية الضامن لأمن

وسلامة الكنيسة بينما يأمل كاهن مرتد (لأنه لا يستطيع أن يصلي) في أن يثور البركان ويحطم السطح المدعى لأولئك الذين يحيطون به. وكما هو الحال غالباً مع إندو فإن الشرير يرى أكثر من الآخرين ومع ذلك فإنه يلتوي في غمار هذه العملية.

وربما كانت تلك أكثر روايات إندو بعثاً للشعور بالرضى من الناحية التكنيكية، فهو يحل صعوباته مع الحبكة عن طريق تحويل هذه الصعوبات إلى مزايا، إن الكتاب لا يحدث فيه شيء، فثورة البركان تؤذن بالوقوع لكنها لا تحدث أبداً، ومعناها كله هو التهديد فحسب، وخلال حديث إندو الطويل والبالغ الإغراق في التقنع والسخرية من الذات معي توقف وتطلع بعيداً لمدة طويلة مرة واحدة حينما أشرت إلى أن البركان يحمل في داخل كل شخصية من شخصيات الرواية. وقال أخيراً: «بالطبع، إن البركان يقبع في الداخل» إنه شيء خاص بالنسبة لكل منها والشيء الحبيس بالداخل هو البركان وشيء مختلف حقاً، وعلى الرغم من أن إندو كان يخاطب اهتمامات يابانية من أنواع عديدة وأنه ليس هناك ما هو أوضح من الرمز في الرواية، إلا أن كل أميركي حري بأن يفكر في القنبلة التي نحيا في ظلها بأن نحملها بداخلنا.

فيما يتعلق بأكثر الأبحاث تعقداً حول موضوعات إندو الرئيسية، يتعين على المرء أن يتطلع إلى موضع لا يحتمل أن يثير الاهتمام، وهو كتابه القصير «حياة المسيح» فقد تعلم الكتّاب اليابانيون الذين يتلقون مدفوعات أفضل مما يتلقى الأميركيون في وقت مبكر أن يحصلوا على جانب من النقود التي يحصلون عليها مقدماً كمقابل لنفقات السفر، وذلك كوسيلة لخفض الضرائب. وهكذا قام إندو بجولة في فلسطين وزار مرابع الكتاب المقدس وحاول أن يفسر شخصية مؤسس المسيحية لبني وطنه في سلسلة من المقالات نشرتها إحدى المجلات، ولأول وهلة فإن ذلك يبدو كما لو كان أمراً لا يتجاوز ممارسة تجارية وتعليمية وكتاباً أولياً لغير المؤمنين بالمسيحية. لكن الأب نيران برهن على أنه ليس أحمق كلية حينما سألته عن دليل على تأثير موریاك على إندو، حيث قال: «لقد أعاد كتابة مؤلف موریاك حياة المسيح» وقد كان كتاب موریاك ذاته إستجابة لكتاب رينان الذائع الصيت الذي يحمل العنوان نفسه، وقد تحدث رينان عن مسيح عذب المنطق، عاشق للطبيعة، عن شخصية رعوية، عن مسيح لا ترقد الأسود في وجوده المهدىء إلى جوار الحملان فحسب لكنها تتحول هي ذاتها إلى أغنام صغيرة مرحة. وقد أثار موریاك قلق بعض الكاثوليك بعدم تشديده على ما هو وراثي في مواجهة عقلانية رينان وتمثل التغيير الأول الذي أدخله والأكثر وضوحاً في الإضاءة، فكافة مشاهد رينان بما في ذلك العشاء الأخير يبدو أنها تحدث في الريف في يوم ربيعي مشمس. أما مسيح موریاك فيتحرك ليلاً في قلوب البشر المعتمة. إنه لا يجلب العقل ليقنع وإنما المحبة لتغفر، ولسوف يمضي بعيداً إلى أعماق قصية ليعثر على أولئك الذين يحتاجون الغفران.

إن إندو يعيد القصة إلى نور النهار، ولكن لا لشيء إلا لأن البراءة الوهّاجة التي تاق رينان إليها هي العدو الحقيقي للمسيح، ويهوذا واضح وعقلاني في هذه الصورة، هو الرجل الوحيد الذي يدرك إلى أين يمضي المسيح، والإثنان يتبارزان الآخر فوق رؤوس الحواريين، ويحاول يهوذا أن ينقذ المسيح من نفسه، من ذلك التحقير الذي يبدو أنه قد عقد العزم على خوض غمار معاناته. إن الشروط يمكن أن يتوصل إليها العقلاء، وفي هذا الصراع يبدو المسيح ويهوذا وكل منهما حاضر بالنسبة للآخر على نحوٍ لا يمكن أن تكون عليه أي شخصيات أخرى في القصة. وحينما لا يكف المسيح عن أن يكون الأحمق، فإن يهوذا يضعه أمام اختبار نهائي، ولكن عند ذلك:

«كان المسيح الآن يلقى الإهانة والإدانة من الشعب، لكن يهوذا نفسه سيدينه الجنس البشري كله إلى الأبد، وما عاناه المسيح اليوم قُدِّر ليهوذا أن يعانيه إلى الأبد، لم يكن بوسعه الهرب من هذا التماثل الغريب، ومن المؤكد أن يهوذا قد عرف في ذلك الوقت معنى حياة المسيح. إن يهوذا يقتل نفسه ليحطم القيد، كما تكلم المسيح من قبل ليحطمه «ما يتعين عليك القيام بـه، قـمْ به سريعاً».

كثيراً ما قال إندو إن المبشرين المسيحيين أخطأوا في تقديم اليسوع إلى اليابان باعتباره الأب المنتقم في التقاليد اليهودية والغربية، وهو يبدأ مقدمته للكتاب المقدس لمواطنيه بالتأكيد على الجانب الضعيف والأنثوي من المسيح، الجانب المسامح و «الأحمق»، لقد كان في النهاية رجلاً مخفقاً في أواسط عمره تخلى عن حرفته وشرع في التجوال، ويقدم إندو الإغراء الذي تعرض له المسيح في الصحراء باعتباره «نداء باطنياً» للدين بالمعنى التقليدي للكلمة، دعوة إلى الاضطلاع العاقل بالواجب الديني والتقدير الكهنوتي للمنافع من أجل الجماعة التي ينتمي إليها المرء. ولكن ما إن يقتحم شخص يهوذا الساحر قصة إندو حتى يصبح هذا الأخير متصلباً مرة أخرى فيما يتعلق بإمكانية تحقق المسيحية في اليابان. فالمسيح ليس متحدياً فحسب ولكنه محرج كذلك لأنه بلا «وجه» على الإطلاق، وما يضيق به يهوذا ذرعاً إنما هو افتقاده الكامل للفخار أو للشعور بقيمته الذاتية وبكرامته، لسوف يترك أياً كان يبصق في وجهه، فكيف يمجد اليابانيون شخصاً غير قابل للتكريم على مثل هذا النحو؟

في القرن السابع عشر قلبت الشعيرة الخاصة بالتحول الديني والتي كان المسيحيون ينصحون بممارستها معنى «الوجه»، فعلى المرء أن يخطو فوق أيقونة تصور العذراء أو اليسوع، وأي شيء يُـمتهن على هذا النحو كان يُنبذ حقاً ولا يعود صالحاً لمعانقته والتعلق به. وقد صرح القس المعذب في «الصمت» مناشداً الرب

لتحطيم صمته خلال أيام الاضطهاد، لكن الصمت يتحطم فحسب حينما يبدو وجه المسيح على الأيقونة وكأنه يقول له: لقد ولدت في هذا العالم لتطأني أقدام البشر. ومنذ هذه النقطة فصاعداً تتذبذب الأحجيات اللاهوتية بعد أن تُطْبَق دفّتا الكتاب بوقت طويل. فالقس يغدو مسيحاً بتسليم المسيح وهو ما آتاه المسيح نفسه. إنه لا يحاول إنقاذ المسيح شأن القديس بطرس (وقد كان ذلك هدف يهوذا) ولا يحاول أن يفسر المسيح أو يجعله يفوز بالأمر الذي من شأنه أن يجعله أقل من المسيح، إنه فحسب يشاركه في العار.

لماذا يكون المرء مسيحياً يابانياً إذا كانت المسيحية غير مقبولة بالنسبة لليابان؟ لأنها غير مقبولة بالنسبة لكافة الثقافات، وإندو يقول بصورة سطحية فحسب إن اليابانيين لا يمكنهم فهم اليسوع، فأولئك الذين يدعون أنهم فهموا حق الفهم يشبهون يهوذا للغاية الذي هو رغم ذلك صورة أخرى للمسيح، إنها ألعوبة المطاردة لكنها تؤدي بدافع الرحمة لا القسوة، لكنها رغم ذلك تجلب المعاناة.

لقد خصص جانب كبير من التفكير الغربي في هذا القرن لسُبل تخليص المرء لذاته من الذنب، ويمكن بسهولة أن نتصور تعقيب إندو الساخر على هذا حيث يقول: «إنك تقصد أنك ترغب في أن تكون يابانياً؟» إنه يتبنى المنهاج القائل بأن المرء يمكن أن يتحرر فحسب من خلال الذنب، وبأن يقف مداناً، والدين المتطرف يقدم له طريقاً للنفاذ خارج ثقافته وخارج ذاته وهي تجربة محررة كذلك، إن يسوعه لطمة لأي سياق ثقافي ولكل سياق، الأمر الذي يشير إلى أن هناك شيئاً يتجاوز السياق المباشر للمرء، ولكن تصديق ذلك حماقة على نحوٍ ما يمكن للمرء أن يدرك إذا ما دلف إلى مشرب بالغ الغرابة في طوكيو.

□ □ □

روايات وقصص عربية
من منشورات دار الآداب ـ بيروت

- **أولاد حارتنا** (طبعة جديدة)
  نجيب محفوظ
- **الأفواه**
  عبدالرحمن الربيعي
- **الوطن في العينين** (الطبعة الثانية)
  حميدة نعنع
- **ظلال على النافذة**
  غائب طعمة فرمان
- **نجران تحت الصفر** (ط ٣)
  يحيى يخلف
- **النمور في اليوم العاشر** (ط٢)
  زكريا تامر
- **النهايات** (ط٣)
  الدكتور عبدالرحمن منيف
- **الحب له صور**
  ليلى العثمان
- **العدوى**
  وليد أبو بكر
- **مجنون الورد**
  محمد شكري
- **سلخ الجلد**
  د. محمد برادة
- **الشجرة المقدسة**
  محمد زفزاف
- **مهمة غير عادية**
  أبو المعاطي أبو النجا
- **الرحلة**
  د. رضوى عاشور
- **قصة حب عصرية**
  الدكتور شريف حتاتة
- **مذكرات امرأة غير واقعية** (رواية)
  سحر خليفة
- **الحب خارج الزمن**
  رؤوف وصفي
- **رحلة الحب والحصاد**
  مبارك ربيع
- **صباح.. ويزحف الليل**
  عبدالكريم غلاب
- **الرهينة**
  زيد مطيع دماج
- **الجسر**
  زيد مطيع دماج